الفصل الثامن

فتوح البلدان وانتصار الفرسان

عودة أقوى إلى رباط الخيل!

فتح الله رجل لا يترجل عن فرسه إلا منتصرًا! فتح الله إمامٌ لا يغمد سيف النور حتى تشرق شمس الروح.. فسِرُّه المكنون يأبى عليه الاستسلام لخفافيش الظلام.

كان الرجل وهو يخوض عواصف الليل الرهيب، يبصر بوارق الفتح قادمة في الأفق القريب، كان يرى كنوز كسرى تتناثر بين يديه، وملك قيصر يأتيه راغما! كلما اشتدت مواجعه، وأطبق عليه الحصار من كل مكان؛ تجلّت له الفتوحات الكبرى تتوغل في ضباب الغرب بكل جهاته، وتفتح منافذ للشمس هناك، ورأى الخيل المجاهدة تذيب بأنفاسها الْحَرَّى جليد سيبيريا، وتدفئ كل قلوب المقرورين في بلاد ما وراء النهرين. ثم رآها صَفًّا كالبنيان المرصوص، تخوض بصدورها العارية عباب المحيط الأطلسي، تسبح بقوة كالحيتان الكبرى، حتى تطأ بحوافرها أرض رومية الجديدة، فتدخل المدائن وهي ترفع أَلْوِيَة المحبة والسلام. وتثخن كتائب أخرى في أدغال إفريقيا، توزع رغيف النور على الفقراء في كل مكان، فإذا بالأطياف السُّمْرِ يكتشفون وجيب القلب الصافي سلاما رحمانيا يغمر كل قبائلهم، ويسمعون نداء الروح يتدفق من أعماق الغابات، فإذا كل الأشجار مآذن، وإذا بخمائلها مساجد وقباب.

ويرى فتح الله كل القارات تلتئم بين يديه في بستان واحد.. ويقرأ

بشارة رسول الله ﷺ أمرًا تكليفيا للأجيال، فيبكي..![1]

.....

قال الراوي:

بعد إطلاق سراحه في التاسع من شهر نوفمبر ١٩٧١م، حاول الأستاذ فتح الله أن يعود إلى اعتلاء رَحْلِهِ المجاهد، فكاتب رئاسة الشؤون الدينية لاستعادة كرسي الوعظ من جديد، والعودة إلى وظيفته الدعوية بإذن رسمي كما كان في مدينة إزمير. فقد صارت هذه المدينة تحتضن فسائل من جهاده الدعوي، وهو أشد ما يكون حرصا على العودة إلى هناك لرعايتها وتنمية قدراتها وإمكاناتها. لكن الجواب تأخر كثيرا، فبقي بأرضروم يعظ بغير تصريح رسمي. لكنه ما لبث أن استُدعِي إلى رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، وهناك حدثه مسؤول التعيينات عن ضغوط الجيش على الإدارة في شأنه هو خاصة، على أساس إجلائه عن مدينة إزمير، وتعيينه في مكان آخر غيرها. فكان أن تم تعيينه في مدينة أَدْرَمِيتْ بعيدا عن إزمير وكان ذلك في ٢٣ فبراير ١٩٧٢.

ورغم بعده عن محضن طلابه الأوائل، إلا أنه استطاع أن ينشئ غرسا جديدا في هذه المدينة النائية، صار مَدَدًا مهمّا لما غرسه في إزمير. وما هي إلا سنتان وأربعة أشهر حتى تم نقله إلى مدينة "مَنِيصَا" واعظا بمركزها. وكان في ذلك فرج عظيم بالنسبة لخدمة فتح الله الدعوية، فـ"مَنِيصَا" لا تبعد عن إزمير إلا قليلا، ومن هناك استطاع أن يجدد التواصل مع طلابه

(١) كان ذلك في درس مؤثر، ألقاه فتح الله في الدور الخامس، حول حديث النبي ﷺ: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين!" وكان فتح الله يرى أن هذا فيه معنى الأمر والتكليف بالدعوة والبلاغ. والحديث رواه أحمد، والحاكم، والطبراني، والبيهقي، وسعيد بن منصور، بسند صحيح.

الأوائل، ويستأنف نشاطه البنائي بقوة. ومن مَنِيصَا إلى إزمير جدد فتح الله الحياة في روح الخدمات الإيمانية مرة أخرى، فطور مجالس التربية، واللقاءات الدعوية، وازداد نشاط المخيمات، وتطورت المشاريع المدرسية بما جعل الدعوة تعرف تطورا كيفيا وكميا في فترة وجيزة من الزمان.

وفاة الوالد

الارتباط الروحي العميق بين فتح الله ووالده لم يكن ليجعل حقيقة الفراق بموت الأب أمرًا هينا في حياة الفتى. كان ذلك في اليوم العشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٤، كان فتح الله يسمي تلك السنة بعام الحزن. فقبل وفاة والده بشهر واحد كان قد توفي صديقه الحميم نجم الدين كُوَنْلِي. كان فتح الله قبل ذلك يرى في المنام كأن طائرتين تطيران بشكل عمودي، فترتفعان في السماء عاليا عاليا، حتى تغيبا عن الأنظار تماما، كانت الرؤيا تعاوده بمنامه من حين لآخر، فلم يلبث أن فوجئ بوفاة الوالد والصديق في نفس العام!

ولم تزل لوعة فراق الوالد تلتهب في قلب فتح الله، ذلك أنه عندما بلغه قرار التعيين إلى مَنِيصَا واعظا، قبَّل يد والده مستأذنا في الالتحاق بالعمل، لكن الوالد المريض طلب من ابنه التريث إلى يوم الخميس، فسكت فتح الله، لكن الوالد المدرك جيدا لطبيعة عمل ابنه الخاصة، والعليم بأنه أكثر من مجرد واعظ بسيط استدرك الأمر فقال بنفَس عميق:

- اِمْضِ يا بني! فإنما تنتظرك هنا عينان اثنتان -مشيرا إلى وجهه- أما هناك فإنه تنتظرك آلاف العيون!

وسافر فتح الله إلى عمله، وبعد أسبوع واحد تلقَّى نبأ وفاة والده الكريم، وعلم أنه توفي في يوم الخميس الذي استمهله أبوه إليه! فَكَرَّ راجعا إلى أرضروم يقطع المسافات الطوال، وقلبه ينزف ندما أن لم ينتظر حتى يوم الخميس، ولم تتح له فرصة توديع أبيه ورفيق عمره الوداع الأخير.

نقل تعسفي جديد

كانت السلطات الظالمة تحرص على جعل الداعية يعيش حياة غير مستقرة، فتسلط عليه سوط الانتقالات التعسفية، والتعيينات المفاجئة، من محافظة إلى أخرى، وذلك في فترات زمنية متقاربة؛ حتى لا يستقيم له عمل دعوي في مكان البتة. فكلما قدَّر المراقبون لحركته أن دفء العلاقات الإيمانية قد بدأ يمتد من قلبه النابض بالحب نحو السكان، رموه بنفي قاس عن المكان، وقطعوا حبل المودة الناشئ في المنطقة القديمة. إلا أن فتح الله كان يُخَيِّب آمالهم البئيسة، فقد كان أسرع مما يظنون، إذ كانت كلماته مثل بيض السمك المهاجر في البحار، يضعها في أرخبيل المرجان ثم يرحل، وما هي إلا فترة قريبة من الزمان حتى تخرج أجنتها إلى عالم الحياة، وتنمو، ثم تلتحق بأسرابها الأولى حيث كانت... ولا يزال فتح الله في تلقي مَدد جديد، من منفى إلى منفى، ومن هجرة إلى أخرى.. ويصير كل مكان قديم موطنَ نصرة لدعوته العصية.

ومن ثم لم يلبث فتح الله بعد ذلك أن نقل بشكل قسري من مدينة "مَنِيصَا" إلى "بُورْنُوَا". وبغض النظر عما ذكرنا، لم يكن ذلك بالذي يضر دعوته أو يمزقها، بل بالعكس كان رحيله إلى "بُورْنُوَا" تجذيرا جديدا،

لدعوته، وامتدادا عميقا لها، فلم تكن المدينة الجديدة بالبعيدة عن إزمير، بل هي إقليم من أقاليمها.

ثم إن فتح الله أثناء هذه الانتقالات والتعيينات، شرع في إلقاء محاضرات خارج المساجد من جديد طمعا في الوصول إلى الجموع التي لا تصلي، كما أنه لم يهمل إلقاء الكلمات في المقاهي. وحيثما حل كان يجيب عن أسئلة الشباب، وما يثيره أعداء الإسلام من شُبه، في وقت كانت الفلسفات الإلحادية قد طغت وانتشرت في أوساط المثقفين والطلبة والأساتذة الجامعيين، فكان الداعية الذي قد غرف من كتب الفلسفة الغربية بشتى مذاهبها، وقرأ من الكتب المختلفة ما يربو على الأحمال الثقال يجيب عن أسئلة العصر المحيرة، ويواجه الهجومات على الدين وأهله، بل يحطم نظريات التطور الإلحادي، بما يبنيه من حجاج مبين ومنطق متين. كان القرآن الكريم هو المصدر الأساس الذي يتزود منه الرجل، وكانت آيات الله في الأنفس والآفاق، تتجلى له كتبا بارزة الكلمات والحروف، فيقرأ فيها من المعارف ما يبهر السامعين، في مجالس الوعظ والمحاضرات على السواء.

ومن ثم بدأت الدعوات تتوارد على فتح الله لإلقاء المحاضرات في هذا الموضوع أو ذاك، من شتى بقاع الوطن، حتى لم تكد تبقى محافظة من محافظات البلد الكبرى، من الغرب إلى الشرق، إلا وحاضر فيها، بل سافر سنة ١٩٧٧ خارج الحدود لمخاطبة الأتراك العاملين في ألمانيا، فجال بين كثير من مدنها الشهيرة، وألقى كلماته في أبناء وطنه، مجددا فيهم أصالة الانتماء إلى دينهم وحضارتهم.

ثم اشتغل في الوقت نفسه -على المستوى الداخلي- بكتابة المقال

الرئيس لعدد من المجلات، التي أصدرها طلابه، في مختلف التخصصات والمستويات. ومن تلك المقالات تكونت كثير من كتبه التي نشرت فيما بعد، وترجم بعضها إلى لغات أخرى.

من المدارس إلى المتارس

كانت إزمير أول محضن لمدرسة النور الجديد... لم تكن المدرسة التي أسسها فتح الله هناك في أول السبعينات من القرن الماضي مدرسة عادية.. كلا! نعم كانت مدرسة بطوريها الإعدادي والثانوي تسير في ظاهرها على نظام الدولة، وبرامج وزارة التربية والتعليم، لكنها تختلف عن المدارس الأخرى في أمر جوهري كبير، ألا وهو رجل التعليم، أعني الأستاذ أو المعلم، أو المدرِّس على العموم. هذا هو مربط الفرس! المدرِّس في مدارس محمد فتح الله معلِّمٌ حقيقة. لم تكن البرامج المفروضة من قبل الدولة، ولا الكتب المدرسية الرسمية، تسمح بأي كلمة "دِين" ينطق بها الأستاذ في فصله، وإلا كان مصير المدرسة كلها الإغلاق والمصادرة! ولكن رجال فتح الله المتخرجين من حلقته الهاربة من مكان إلى مكان، كانوا يتكلمون بأعينهم، على قدر ما يتكلمون بألسنتهم ولربما أكثر.. كانوا يحسنون لغة القلب، وكانت أشعّة النور التي تلقوها من أستاذهم الكبير ذات وهج نفّاذ، كلما نظروا في عيون الأطفال أو التلاميذ أو الطلبة الشباب نبهوا أرواحهم إلى نوافذ الروح العالية، فتشرئبّ أعناقهم إلى السماء مباشرة، فيبصرون عناقيد الجنة تتدلى فوق قلوبهم، ثم يعشقون صور الحق والجمال، ومن هناك تتعلق قلوبهم بقناديل النور. وتصبح المدارس رغم البرامج المتحجرة والقوانين القاسية شلالات للخير،

تتدفق بآلاف المتخرجين من رجال الروح، الذين ينتشرون في كل مكان، أُطرًا عليا لبناء عمران الزمان الجديد.

ومن إزمير انتشرت تجربة المدارس الخضراء في كل مكان، فكانت فسائلَ حب ورسائل تبشير، احتضنها طلاب الأستاذ فتح الله، وموَّلها مُحِبُّوه من رجال الأعمال، الذين تنافسوا في البناء والشراء والكراء، حتى أشرفت عمارات المدارس على كل المدائن في جميع بلاد الأناضول.

كانت أنقرة وهي المدينة الصعبة، من أوائل المدن التي تأسست فيها مدارس فتح الله، بعد إزمير. وهناك إلى جانب غابات الجحيم، كانت شلالات السلام تتدفق على المدينة، ببحار الروح التي لا تنفد أبدًا. وتحولت أنقرة من مدينة مفزعة مخيفة، إلى مدينة تصدر شعاعات الروح، وترسل حمائم الحب والسلام. وما هي إلا سنوات حتى تفتحت الورود في جميع بلاد الأناضول.

الدَّوْرُ الخامس

الدَّوْرُ الخامس أو الطابق الخامس، هو في الأصل الرقم الترتيبي للطابق رقم خمسة من كل عمارة ذات حمسة طوابق فأكثر.. لكن هذه العبارة في الاصطلاح الخاص لطلاب الأستاذ فتح الله، صار لها دلالة خاصة.. دلالة ذات مضمون عميق، مكتنز بالدلالات الإيمانية والحقائق الروحية، والتعليمية، والتربوية، ومستودع لأسرار دعوة فتح الله، ومركز لتدبير شؤونها الخاصة والعامة؛ حتى إن خدمة تجديد الدين التي قادها الأستاذ فتح الله، كادت أن تكون كلها من الدور الخامس!

كانت بعض المدارس التي شجّع على تأسيسها الأستاذ، بدعم من رجال الأعمال الموالين له، تُبنى على شكل عمارات، فتجعل مدارس ذات أقسام وفصول رسمية للتعليم الخاص، إلا الدور الخامس، فقد كان أشمل من ذلك وأدقّ، إنه عرين الأسد العظيم محمد فتح الله كولن! كذلك الأمر كان، سواء في إزمير، أو في أنقرة، أو في إسطنبول.

في الدور الخامس كان فتح الله يلقي دروسه على خواص طلابه الأصفياء، في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية، وسائر العلوم. يفعل ذلك وهو في الوقت نفسه طريد شريد، مبحوث عنه...

كان الدور الخامس بالنسبة للأستاذ فتح الله، مكانا له خصوصية نفسية، وارتباط وجداني عميق، كان مقاما تشرق من شرفاته أنوار الروح. ولم يكن الرجل يغادره إلا لضرورة أمنية أو نحوها. الدور الخامس هو بالنسبة إليه كغار حراء، وكغار ثور، أو مثل دار الأرقم بن أبي الأرقم، أو شِعْبِ أبي طالب بمكة. فيه خلوته، وفيه جلوته، فيه منفاه، وفيه سجنه، فيه صحبته، وفيه مجالسه.. وقد تمضي الشهور تلو الشهور، وهو هناك، مستقر بعرينه، لا يغادره إلى غيره، حتى يتلقى إشارة أو نذارة، بضرورة الرحيل وتغيير المكان.

كذلك كان الدور الخامس في حياة الداعية الأستاذ محمد فتح الله، حتى إنَّ لكَ أن تقول: من الدور الخامس صنع الأستاذ كل خدمات تجديد الدين بتركيا! ومن الدور الخامس فتح أبوابها على العالم، كل العالم!

عندما يكون جالسا هناك، يلقي كلماته المؤثرة على طلابه المخلصين، من رجال الأعمال وغيرهم كان يكفي أن يشير فتنبت أشجار المدارس هنا وهناك، وتمتلئ الفصول بأغاريد الأطفال والشبان،

يرسمون على السبورات الخضراء لوحات الأمل الجديد. وبكلمة واحدة منه تنتصب صروح لمدارس عليا أو جامعات، أو مستشفيات من الطراز الراقي، تحتضن المرضى المستضعفين من كل الجهات، أو عمارات للصحافة والإعلام المجاهد، وفضائيات تدافع صور الشر، وتبث صور الخير والجمال.

ومن ثم لم تلبث دعوة فتح الله إلا نحو بضع وعشرين سنة، حتى كانت محاطة بمتاريس من أكبر مؤسسات الاقتصاد، وأقوى أجهزة الإعلام، وأطر عليا من الرجال المخلصين لدعوتهم، ينتصبون بأكتافهم العالية في كل قطاع حيوي، أعمدة متينة ترفع صرح الأمة في الزمان الجديد!

ومن ثم أيضا استطاعت مواعظ فتح الله ومدارسه، أن تصنع قوة صوتية انتخابية، لم تشارك في العمل السياسي الحزبي قط، ولكنها كانت تسهم بدور فعال في صناعة الواجهة السياسية للدولة؛ حتى إن كل الأحزاب السياسية بشتى توجهاتها كانت تستدر عطفها، ولم يزل فتح الله في كل المواسم الانتخابية، مزارًا مقصودًا لكثير من الزعماء السياسيين، لعلهم يفوزون منه بكلمة رضى، أو على الأقل يربحون سمعة طيبة، بأنهم ليسوا أعداء لفتح الله ولا لدعوته!

انقلاب عسكري ثالث يدمر الأمان العام

الملاحظ لتاريخ الانقلابات العسكرية في تركيا الحديثة، يجد أنها ذات طبيعة عَشرية، ففي كل عشر سنوات تقريبا، يتدخل الجيش بانقلاب دموي؛ ليذكِّر المجتمع ورجال السياسة عموما، بأن الكلمة الأولى في

هذه الدولة هي للقوة العسكرية، وأنه لا إمكان للتغيير نحو الأفضل!

قال الراوي:

كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٠، كان رئيس الوزراء يومها هو الرئيس "سُلَيمان دِيمِيرِيل"، وأما الذي قاد الانقلاب فهو الجنرال "كَنعان إِفْرِين". كان انقلابا عشوائيا همجيا، فقد تم بموجبه وضع مليون وستمائة وثلاثة وثمانين شخصا ضمن لائحة المطلوبين! وتم اعتقال ستمائة وخمسين ألف شخص منهم، وحُكم بالسجن على مائتين وثلاثين ألف شخص لفترات مديدة، كما حُكم بالإعدام على خمسمائة وسبعة عشر رجلا، ونفذ الشنق في خمسين رجلا منهم![1]

كان فتح الله يدرك أن الجو الذي ساد البلاد قبيل الانقلاب، ينذر بحدوثه بشكل واضح، وكان يرى أن القارئ لأحداث المجتمع وتطوراتها، لم يكن في حاجة إلى كثير من الذكاء ليفهم بأن الجيش يبيت لشر ما، وأن لحظة الانقضاض على الحريات العامة، وخنق أنفاس الجماهير قد حانت!

كان الصراع بين اليمين واليسار قد احتدم خلال تلك الأيام، وفَشَا رفع الشعارات الماركسية واللينينية المتطرفة، وبدا جليا أن الساحة صارت صراعا غير مباشر بين أمريكا والاتحاد السوفياتي، معركة يؤدي ثمنها في نهاية المطاف الأتراك، سواء كانوا من هذا الاتجاه أو ذاك، وارتفع الشعار العدمي المجنون: "لنهدم أولا، ثم لنفكر بعد في طريقة البناء!" ذلك الشعار المألوف في الصراعات الأهلية لدى الدول المتخلفة.. ومن ثم كانت الأيدي الخفية تلعب بجموع الشباب في الشوارع والجامعات تمهيدا لصناعة انقلاب عسكري أهوج، أتى على الأخضر واليابس!

---

(١) جريدة "زمان" التركية، الصادرة بتاريخ: ١٢ سبتمبر ٢٠٠٩م.

كان فتح الله واعيا جدا بهذا المصير؛ ولذلك فقد كان يحذر أصحابه، وسائر أبناء التيارات الإسلامية الأخرى، من مغبة وقوعه، وخطر الاحتراق بناره.

الواعظ الطريد

بُعَيد الانقلاب مباشرة، بدأت قوات الأمن لمحافظة إزمير تطارد الواعظ الداعية باستمرار، حتى شعر بالضيق والاختناق، فطلب من إدارة الشؤون الدينية الانتقال من المحافظة كلها إلى غيرها، فعين بمحافظة "جَنَاقْ قَلْعَه"، لكن الأمر ازداد سوءا لما أعلن الانقلابيون قانون الطوارئ العسكري، وشرعوا في اعتقال المطلوبين، فصار الرجل مطلوبا بارزا من لدن مخابرات الجيش أيضا، على الصعيد الوطني كله... وصارت صورته الشخصية معلَّقة -كأي مجرم خطير- على سبورات الإدارات العسكرية في كل مكان!

وغطس فتح الله في أعماق المجتمع، ينتقل بين المخابئ والملاجئ، فعاش في وضعية الهارب المطلوب لمدة ستّ سنوات تقريبا! لكنه لم يفتر خلالها قط عن ممارسة عمله الدعوي، ولا عن بذل خدماته الإيمانية بكل إخلاص وإصرار.. فقد يختبئ بهذا المبنى أو ذاك، فيدخل عليه طلابه بنظام خاص، ويعتكفون جميعا هناك بضعة أشهر، يتدارسون علوم القرآن، ويدبرون أمر الدعوة؛ حتى إذا جاءت الإشارة والنذارة، ممن وكلهم فتح الله بمتابعة الوضع الأمني للمكان، تسلل الرجل مع رفقائه إلى مكان آخر، في حي آخر، أو ربما مدينة أخرى.

إشارات

في أحد الأيام كان الأستاذ ينظر خلف الزجاج الغامق إلى الأفق، من خلال نوافذ الدور الخامس الفسيحة بإسطنبول، فرأى الطيور تحوم على رأس المبنى، تذهب وتعود، ثم تطوف بالمكان بشكل غريب، تأمل فتح الله ذلك المشهد للحظات، ثم نادى على الفور طلابه: "هيا لنترك هذا المكان!". ثم تسللوا جميعا من المكان، وانتقلوا مستخفين إلى جهة أخرى، وما هي إلا لحظات حتى هاجمت الشرطة مقر الدور الخامس، وفتشته تفتيشا، فلم تفز بشيء!

وفي واقعة أخرى عندما كان الأستاذ مطلوبًا لدى السلطان كان يعاني من قروح في جسمه، كانت مؤلمة جدا، حتى إنها لتكاد تمنعه من الحركة، ولم يكن يجلس على الكرسي لإلقاء درسه إلا والألم يعتصر جسمه! فجاءه النذير من طلابه بضرورة إخلاء المكان بسرعة، لكن أنّى للأستاذ المريض أن يتحرك بسرعة! وهنا أمر الرجل طلبته بالتفرق في غرف الدور الخامس ومرافقه، وبقى هو وحده في صالة الدرس الفسيحة. ثم اختبأ خلف إحدى الستائر، وبقي هناك فترة بدت له كالسنين، والألم يعتصر جسمه، والعرق يتصبب من رأسه إلى أخمص قدميه! وما هي إلا دقائق حتى هاجمت الشرطة المكان! فجعلوا يفتشون مرافق المبنى تفتيشا دقيقا، ويقتحمون الأبواب الواحد تلو الآخر، فلا يجدون إلا طالبا هنا، وطالبا هناك! لكن مقصودهم هو فتح الله، لا حاجة لهم بالطلبة الآن... جعلوا يطوفون في صالة الدرس، ويذرعونها جيئة وإيابا، ويتحدثون مستغربين اختفاء الرجل، مع أن المعلومات التي عندهم قاطعة بأنه موجود في تلك الساعة هناك. كان فتح الله خلف الحجاب يسمع كلامهم ووقع أحذيتهم

الغليظة، ولو أن أحدهم كلف نفسه الانحناء قليلا، أو مد يده فرفع ذلك الستار الصغير، لوجد فتحَ الله جالسا القرفصاء، يتصبب عرقا في مخبئه الصغير. وطالت مدة البحث والتفتيش، وفتح الله يتنفس بعسر داخل المخبأ، والعرق لا يزداد إلا تدفقا حتى التصقت ملابسه بكل جسمه... وأعمى الله بصيرة الشرطة عن الانتباه إلى ما قد يكون وراء الحجاب... حتى إذا يئسوا تماما خرجوا خاسئين مهزومين. ثم خرج فتح الله من مخبئه، ومشى قليلا في الصالة، فإذا به يجد نفسه يتحرك بيسر، وإذا بآلام القروح قد زالت تماما.

وليس ينسى فتح الله حادثة تدخل العناية الإلهية في حقه، وإنقاذه من الزلل بواسطة حشرة! كان ذلك منذ أيام المخيمات، كان فتح الله ساعتَها يلقي درسا على طلابه حول "معرفة الله". كانت حلقة الدرس في الغابة وسط الأشجار، وبينما هو مستغرق في شروحه وبياناته واستدلالاته، خطر بباله أن يضرب مثلا لبعض حقائق الربوبية، على سبيل البيان والتقريب، وبمجرد ما شرع في التلفظ بالأحرف الأولى، إذا بحشرة غريبة ذات أجنحة ومخالب، خرجت من وسط الغابة وجعلت تطير فوق رؤوس المجتمعين، وتطوف كأنما تبحث عن شيء. وبعد ثوان قصدت الشيخ فتح الله فحطت على فمه، ثم قبضت بأرجلها ومخالبها على شفتيه السفلى والعليا معا، ومنعَتْه من الكلام تماما! حاول الرجل إزاحتها بسرعة، فدفعها بيده، فإذا هي عالقة ثابتة، متشبثة بشفتيه، ثم أخذها بأصابعه بقوة وألقاها بعيدًا.. واستأنف درسه كأن شيئا لم يحدث. ورجع الأستاذ إلى نفس العبارات التي توقف عندها، فما أن نطق بأحرفها الأولى، حتى ظهرت الحشرة العجيبة في فضاء الحلقة مرة أخرى، وشعر الطلاب بشيء من

الخوف أن تؤذي الحشرة الأستاذ ثانية، وتحقق المحذور، فقد طارت الحشرة كالسهم نحو وجه فتح الله، فحطت بمخالبها للمرة الثانية على فمه، وأطبقت على شفتيه. وهنا قرأ فتح الله الإشارة، وأدرك أن ما أراد النطق به لم يكن تعبيرًا يليق بمقام الربوبية، فانفجر الشيخ باكيا، وجعل يستغفر ربه ويتوب إليه، ويستعيذ به أن يكون من الجاهلين.

وهذه أو تلك في حياة فتح الله كثير، فهو صاحب مناجاة وابتهالات، كثير البكاء بين يدي مولاه، يبيت متبتلا وحده، فإذا أصبح ركب حصانه وانطلق يخوض غبار المسك، يقود كتيبة الدعوة والجهاد.

ولم يزل على مقام رفيع من الورع، يتحرج من المشتبهات الصغيرة، بل يتحاشى حتى بعض المباحات غير اللازمة، إلى درجة ربما أضر بها نفسه في بعض الأحيان. ما غذَّى جسمه ولا عالجه قط إلا بالطيب الحلال.. وليس ينسى خواصُّ طلابه يومَ كان يُلقي عليهم درسه بالدور الخامس، فأصابته نوبة قلبية، كانت تنتابه أحيانا، فمال على جنبه في شبه إغماء، وانطلق الطلبة كالبرق مسرعين إلى غرفته ليأتوا بقرص من دواء القلب، ولكن تبيّن لهم أن الدواء قد نفد، فأسقط في أيديهم، في هذا الأثناء كان الأستاذ يتابع حركة الطلاّب وجلبتهم في حالة أقرب إلى الإعماء، فإذا بأحد الطلبة يهَرْول نحوه بقرص من الدواء وقد جاء من اتجاه مغاير لقرفة الأستاذ.. فلما وضعه بيده، سأله بصوت ضعيف: "من أين جئتم بالدواء؟" فأجابوا بأنه من صيدلية الدور الخامس الحائطية، وهي مستودع صغير وقْف على الجميع.. فأبى الأستاذ أن يأخذ الدواء رغم حرج الموقف، وكيف له أن يفعل ذلك وقد عاش طوال حياته لا يطعم شيئًا من مال الوقف ولا يجد في نفسه الحق لاستعماله. وهكذا، ظل فترة كالمغشيّ عليه يراوح الموت والحياة إلى أن كشف الله عنه الغمة بعد حين.

فتح الله في تابوت موسى!

حينما يكون فتح الله خارج الدور الخامس، قلة قليلة جدا من طلابه يعرفون مخبأه، وذلك أيام الطلب بعد انقلاب ثمانين؛ فلربما كان في شقة خالية، ولربما كان في مدرسة أخرى، أو غير هذا وذاك. مرة اختبأ في بيت أسرة من محبّيه المخلصين جدا، كانوا إخوة من كبار رجال الأعمال، وكانت لهم أم عظيمة اتخذت فتح الله كأحد أبنائها، كانت تعطف عليه كثيرا، وترعى شؤونه. فبقي بغرفته المخصصة له هناك فترة، إلى أن أذن الله له بالخروج.

ذات يوم كان فتح الله في مخبأ مجهول، بعيدا عن الدور الخامس، كانت الظروف عصيبة جدا، وكان الوقت ليلا، وكان هناك طارئ مستعجل يهم الدعوة، لا بد من القضاء فيه بعَقْد لقاء مع خُلَّصِ طلابه، للتشاور من جهة والتحقق من الأخبار والمعطيات من جهة أخرى، قبل الحسم في الأمر. الإخوة كلهم في الدور الخامس، وفتح الله في مخبئه السري، ولا يمكن أن يعقد اللقاء حيث هو، فقرر المغامرة والالتحاق بالاجتماع في الدور الخامس!

في نحو منتصف الليل، وقفت شاحنة صغيرة بباب المخبأ السري، ونزل منها نحو ثلاثة من طلاب الأستاذ، من أصحاب سره، وخاصة أمره، فدخلوا عليه. كانت هناك بالبيت أريكة من النوع الذي ينفتح فيتحول سريرًا، فإذا جُمِعَ صار أريكة. قام فتح الله ببسطها فبدا من تحت السرير درج طويل، على قدر السرير، تُخزن فيه الوسائد والبطانيات، فأخلاه فتح الله بيديه، ثم اندس داخله ممتدا على جنبه، وأمر طلابه بإغلاق السرير، فتحول إلى أريكة مرة أخرى، وبقي فتح الله داخل تابوت. وحمل الطلبة

الأريكة على أكتافهم، حتى وضعوها على متن الشاحنة الصغيرة، ثم جلسوا هم فوق الأريكة، مصطفين على مقاعدها، وأستاذهم يرقد من تحتهم. وانطلقت الشاحنة تجوب بهم شوارع إسطنبول، يعبرون الحواجز الأمنية هناك وهنا، دون أن يرتاب منهم أحد، حتى وصلوا باب الدور الخامس، حيث مكان الاجتماع، فنزل الطلاب وحملوا الأريكة على أكتافهم مرة أخرى، ودخلوا بها إلى داخل المبنى، وعلى باب المصعد الخاص، فتحوا الأريكة، فخرج فتح الله من تحتها بسرعة، وارتقوا نحو الدور الخامس، ليفاجؤوا المجتمعين بما لم يخطر لهم على بال، وتم اللقاء في أمان الله.

الدرس الهارب والقبض على فتح الله

والشيء العجيب من ذلك كله، هو إصرار الأستاذ على إلقاء درسه العلمي، مهما كانت الظروف. فكم مرة كانت السيارة الهاربة التي يركبها الشيخ مع طلابه، هي الفصل الدراسي الذي يلقي فيه درسه. فهناك طالب يسوق، وآخرون في الخلف أو في الأمام يستمعون، والأستاذ بينهم يشرح ويفسر مطمئنا، وكأنما هو في حلقة الدرس بمسجده أو بمقره في الدور الخامس. ولم يزل المعلم المجاهد على تلك الحال العجيبة، إلى أن قُبض عليه في مدينة "بُورْدُورْ" في اليوم الثاني عشر من شهر يناير، سنة ١٩٨٦.

وبعد استنطاق طويل، سِيقَ إلى إزمير مركز نشاطه الدعوي، ليحاكم هناك. لكن قَدَرًا رحمانيّا تدخّل فأطلق سراح فتح الله!

ذلك أن الجيش خلال تلك السنوات العجاف، كان قد أعلن عن

عهد ديموقراطي جديد، وسلم السلطة مرة أخرى إلى المدنيين. فحَمَلَت الانتخابات العامة إلى رئاسة الوزراء الرئيس "تُورْغُوطْ أُوزَال".

تُورْغُوطْ أُوزَال كان رجلا يحمل قلبا ينبض بالخير.. وكان لفتح الله صلة به قبل ذلك بزمن قديم، فقد سبق للرئيس أن شرب من كؤوس الواعظ الداعية، في مجالس صحبته، وتلقى من مواعظه نفحات من بصائر الروح جعلت قلبه يستبطن إيمانا خفيا، صَحِبَهُ طيلةَ حياته السياسية، سواء وهو رئيس للوزراء، أو وهو رئيس للجمهورية فيما بعد. فقد كان أول رئيس يصلي الجمعة علَنا وبشكل رسمي. واستطاع بحنكته السياسية، وبما ربط من علاقات خاصة مع دول الغرب؛ أن يضغط على الجيش، ويلجئه نسبيا إلى التزام ثكناته العسكرية! وحقق بذلك مكاسب من الحريات العامة غير مسبوقة في المجتمع التركي. وقد كان لعهده السياسي أثر لا يخفى على حرية العمل الإسلامي، وانتشار الخير في كل مكان، إلى أن مات فجأة في ظروف غامضة، تغمده الله برحمته.

الرئيس تُورْغُوطْ أُوزَال، بمجرد ما حدث اعتقال الشيخ فتح الله، كان الخبر عنده في مكتبه. وفي منتصف تلك الليلة نفسها، جمع الرئيس كل الوزراء، وأصدر بلاغا حكوميا حول الأستاذ فتح الله، يبرئه من كل ما يمكن أن يتابع به أمنيا. وهناك أطلقت قوات أمن إزمير سراحه فورًا.

واستغل فتح الله هذا الانفراج المؤقت، فجعل يطوف البلاد، ويتنقل بين المدن، يتفقد أصحابه ويثبت رجاله، ويطور من خدماته الإيمانية؛ بما يجعلها عصية على الإبادة أو الابتلاع. حتى إذا كان اليوم السادس من شهر يونيو من السنة نفسها، انطلق قاصدا حج بيت الله الحرام للمرة الثانية في حياته. وأثناء وجوده بأرض الحجاز، أُحْدِثَتْ فتنة سياسية في تركيا،

وُرِّطَ فيها بعض الأشخاص المعروفين بانتمائهم للعمل الإسلامي، فأبت الجهات الأمنية المتربصة إلا أن تُقحم الأستاذ فتح الله في هذه القضية، رغم براءته منها بشكل واضح، ومن ثم استصدر قرار القبض عليه مرة أخرى!

ورغم أن المرافقين للأستاذ من طلابه وأصحابه نصحوه بالبقاء في المدينة المنورة، إلا أن الرجل أبَى، وقرر دخول تركيا! فدخلها مستخفيا عن طريق البر، عبر الحدود السورية. ثم سافر سرًّا حتى مدينة إزمير في غرب البلاد، وهنالك سلّم نفسه إلى أمنها، لكن المحكمة سرعان ما حكمت له بالبراءة مرة أخرى فأُطْلِق سراحه.. وانطلق فتح الله يلقي مواعظه بين المساجد مرة أخرى..

لقد كانت دعوته في هذه المرحلة قد تأصلت في المجتمع التركي، بحيث يستحيل القضاء عليها أو إبادتها. كانت مؤسساتها العلمية والاقتصادية والإعلامية، قد سيطرت على الساحة تماما أو كادت. كان الأستاذ يرى بعين بصيرته أرجل الأخطبوط الأسود، تمتد نحوه شيئا فشيئا، لتقبض عليه مرة أخرى هنا أو هناك، فلم يزل يحتفظ بحذره اليقظان ولو نام الزمان!

شاعر البطولة والأحزان

كان فتح الله في تلك المرحلة العصيبة كثير الخلوات، يتأمل حال أمته ويراقب صيرورتها، ويتذكر المجد العثماني الذي كان، والمآسي التي تعرض لها من قِبَلِ أعدائه في الداخل والخارج، ثم يتفكر في النكبات الرهيبة التي توالت على الشعب التركي بعد ذلك! فيلتقط درر الحكمة وهو يبكي.. وفي ذلك كتب فتح الله كثيرًا من أشعاره.

ذات خلوة مع نشيج الروح، جعل يتذكر الأيام الدامية، فيضمد جروحَه بجروحها.. ثم يكتب من مداد دمائها ودموعه شعرًا ملتهبا، عن فارس الخلافة العثمانية، ذلك البطل الذي فتح غرب أوروبا حتى حدود النمسا! فوطَّن فيها دين الإسلام، وأخرجها من الظلمات إلى النور.. لكن قوى الغرب المخادعة، لم تزل تراقبه من وراء جُدُرِهَا، حتى إذا رأته غَفَا تسللت إليه، واغتالته في قلب عرينه، فسقطت الخلافة العثمانية... لكن الحنين للدين استيقظ بأحرار الشعب التركي، فجاهد لاسترداد الكنز المفقود. وبينما هو في بداية الطريق، جاء الانقلاب العسكري الأول، سنة ١٩٦٠م من القرن الميلادي الماضي، فحطم آمال الجماهير، وبكى فتح الله كثيرًا.. وعن هذا وذاك كتب شعره الملتاع "روح الأمّة":

قال يستنهض فارسه المغتال:

فارسٌ كان هنا.. في ذاك السفح دفَنوه،
سلبوا قَمِيصَهُ، ومزقوا الكفَنَ !
ثم حذَّروا: لربما ينهض من جديد..!
فأثقلوا جَدَثَهُ بوابل الحجارة..!
فارسٌ كان هنا.. في ذاك السفح دفنوه..

يا فارسي! هلاَّ حَدَّثْتَني عمَّا جرَى..؟
هلا حدثتني بروحك المهموم،
فالوطَنُ مغموم،
فاجْلِسْ معي ولْنَبْكِ جُرحَنا.. ولْتَكْتَوِ قلوبُنا بالنار!
يا فارسي! هلاَّ حَدَّثْتَني عمَّا جرَى..؟

ألا تسمعني؟.. فابعث بهاتف إلَيّ !
فإنني منذ سنين وأنا أُسَلِّي أملي
بطيفك الجلي!
عساك في غد تأتي إلَيّ
ألا تسمعني؟.. فابعث بهاتف إلَيّ !

فإنني مُدَّثِّرٌ بخجلي، من خَوَرِ السنين،
قلبيَ الْمَشُوقُ آملاً ينتظر لقاك،
يرقَى إلى السماء عاليا لِحين
وعلى الثرى يحبو من ضعفه لِحين
فإنني مُدَّثِّرٌ بخجلي، من خَوَرِ السنين،

كل مكان منقوض مهدوم..
هذا عيد البوم!
تحطمت كل الجسور ههنا فلا عبور..
جفت عيون الماء، فليس لها سقاء!
وانقطع المسير
كل مكان منقوض مهدوم..
هذا عيد البوم!

إرادةٌ مُزَعْزَعَةْ.. وأَنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!
الأشقياء سلبوا شهادة التاريخ

فهذه أخلاقنا تمشي على عَطَبٍ،
قد انقلبتْ رأْساً على عَقِبٍ..
فليس للمقدَّسات في البلاد من مجير،
إرادةٌ مُزَعْزَعَةْ.. وأَنْفُسٌ مَصْدُومَةٌ مُرَوَّعَةْ!

ألاَ يا فارِسِي انبعثْ!
كما أنت في قصص الأحلام والرؤى..
أَقْدِمْ مع الفجر الجديد راكبا حصانَك الأَبيض
الآن أُغمض عَيْنَيَّ فأراك بعيون الروح،
فانبعثْ يا فارسي وحقق القدوم
كما أنت في قصص الأحلام والرؤى.[1]

فتوحات آسيا الوسطى

في تلك الظروف كان الاتحاد السوفياتي البائد قد انهار، وتمزقت أشلاؤه، فخرجت الجمهوريات المسلمة، التي كانت ترزح تحت أغلاله دهرًا ليس باليسير، حائرة مضطربة. فكان أن انتبه الأستاذ فتح الله إلى هذا، فألقى درسه التاريخي بمسجد السليمانية في إسطنبول، وذلك في شهر نوفمبر ١٩٨٩، حيث شجع رجال الدعوة الأتراك ورجال الأعمال المساندين على نقل خدماتهم الإيمانية إلى جمهوريات آسيا الوسطى، والهجرة إلى دولها المختلفة، مثل كَازَاخِسْتَان، وأَذَرْبَيْجَان، وتَتَارِسْتَان،

(١) من ديوانه: المعزف المكسور، (النص مترجَم).

ونحوها. خاصة وأنها دول كانت لها صلة بالدولة العثمانية من قبل. وفي زمن وجيز كانت المدارس والشركات التركية، قد تأسست وانتشرب في كثير من دول المنطقة، بل بلغت إلى العمق الروسي المخيف، فتأسست مدارس في موسكو وغيرها من المدن في أنحاء العالم.

عام حزن جديد

في اليوم الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٩٩٣، كان فتح الله متكئا على سريره بمقره في الدور الخامس، كان يبحث عن لحظة للراحة من تعب الطريق الشاق الطويل، عساه يستعيد ما ضاع منه من قوة، من أجل إعداد ما يجب إعداده لإنشاء الغد. وبينما هو كذلك إذ سمع نقرًا خفيفا في في زجاج النافذة، ظن في البداية أن أطفال خادمه الخاص، يلعبون بأشيائهم الصغيرة بالقرب من باب غرفته، ولكن النقر ازداد بإلحاح، وبشكل منتظم مثير، فرفع فتح الله رأسه إلى النافذة عند رأسه، فإذا به يرى من خلفها حمامة بيضاء تنقر الزجاج بمنقرها الرشيق نقرًا، نظر إليها ونظرت إليه، ثم طارت، وأسرع الرجل في الحين إلى سماعة الهاتف، فاتصل ببعض أصدقائه، فأخبروه على التو بأن رئيس الجمهورية السيد تُرْغُوطْ أُوزَالْ قد مات! وأرسل فتح الله برقية تعزية، تعبر عن بعض الأسى والألم، الذى أحدثه جرح وفاة رئيس، كان له من الوفاء للأمة ما لم يكن لغيره من قبل!

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو من السنة نفسها، توفيت والدة فتح الله، السيدة رفيعة هانم، بمدينة إزمير حيث كانت تقطن مع

أبنائها الآخرين... وهناك أَمَّ فتح الله صلاة الجنازة على والدته. وكما لم يكن من السهل على الرجل مفارقة والده المربي الممتاز، لم يكن من السهل عليه أيضا مفارقة أُمّ عمرتْ قلبه بروح القرآن! ويكفي أن نقول في وصف هذا الفقدان الأليم: إن قلب فتح الله لم يزل بعدها -وهو في كهولته وشيخوخته- يشعر باليتم من جهتها! فكانت تلك السنة بحق عام حزن آخر في حياة الأستاذ فتح الله.

فتح إسطنبول

إسطنبول هي أم المدائن، مَنْ مَلَكَهَا مَلَكَ الأرض كلها، ومن خسرها خسر الأرض كلها..!

عندما حاصرها محمد الفاتح، كان لحصاره مراحل ومكابدات، ثم جاء نصر الله والفتح.. ومن قبله جاهد الصحابة والتابعون، وقرونٌ من المسلمين لفتحها، ولكن قدَر الله له إبَّان.

عندما حل عصر الظلمات، كانت إسطنبول في حاجة إلى شهقة من نور...

البَكَّاءُ الوحيد في هذا الزمان هو محمد فتح الله كولن... لم يكن بكاؤه عويل عجز، ولا ندب يأس، ولكنه كان لغة أخرى... لغة تقدح النور في الصخر المطل على العالم من على مشارف الجبال الشاهقة... فإذا الطيور تقذف من حناجرها بروق البشائر الكاشفة لزمن الظلام!

كان يوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٧٧... أول موعد لومضة البرق الأولى في إسطنبول.. وكان الحَمَام على موعد مع

بكاء فتح الله في مسجد "يَنِي جامع"، أو "الجامع الجديد". هناك على شاطئ البوسفور، ومن خَلْفِ عشرات المآذن القديمة، والقباب المحتضنة للألم العتيق؛ هناك قذف فتح الله شهقة النور الأولى في عصر الظلمات الأخير.. فإذا بالنوارس تتلقف وميضَها لهبًا يهيج أحزان التاريخ... ويضرب البرقُ كل آفاق إسطنبول، فتفزع خفافيش الظلام في كل مكان!

تلك كانت جرعة أولى، ثم عاد فتح الله إلى حصنه الأول في إِزْمِير... لكن إسطنبول ذاقت جمال النور، فجعلت المآذن والقباب تهتز أجنحتها شوقًا إلى البُكاء الشهي، وفتح الله أب رحيم، تهزه أنات المستضعفين، فلا يملك إلا أن يستجيب لكل أذان خَرَقَ جدران القلوب: أن "يا خيل الله اركبي"!

ويركب فتح الله أهوال الليل، فيرحل إلى إسطنبول مرة أخرى... وينزل ضيفًا على باحات المساجد السلطانية، الواحد تلو الآخر، "مسجد السُّلطان أَحْمَد" العظيم، و"مسجد السَّلَيْمَانِيَّة"، ومسجد "والدة السُّلْطَان".. إلخ. ثم يجد الجماهير المؤمنة العطشى تمد أكفها مزدحمة على منبر الوعظ، وهي تنتظر تدفق صنبور النور، فتغرف من شهيق فتح الله في كل مساجد إسطنبول، حتى ما بقي نورس أو حمام لا يعرف نغمة نوحه الجميل. وأنبتت دعوة فتح الله أشجارها في كل أرجاء إسطنبول، وتشابكت الأغصان تحتضن مدارس الخير بين عمران المدينة الأميرة، ومن ثم بدأ النور يمتد إلى كل بلاد الأناضول، حتى لم يبق مكان إلا سكنه وجْد الشوق إلى ميلاد الصباح.. وصارت المدائن والقرى تتجاوب مواجيدها، أصداءً تتبادلها الجبال والشطآن، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

ثم صارت إسطنبول عاصمة حقا، وفتح الأمير الجديد الباب العالي

من جديد... وأبت عاصمة الروح إلا أن تحتضن كرسي القيادة للإشراف على خدمة الدين في كل البلاد. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦، رحل الأستاذ فتح الله من إزمير إلى مدينة إسطنبول بصفة نهائية، وتربع على كرسي الدرس بمقر إقامته الأثير، في الدور الخامس. ومن هنا صارت الكتائب والسرايا كلها، تنطلق نحو مغازيها من مدينة إسطنبول. وماذا غير إسطنبول من المدائن قدير على إيصال صوت الفجر إلى كل العالم؟

الحوار الوطني

فتح الله الآن شخصية وطنية كبرى، ليس من السهل الوصول إلى إيذائه، ولا من السهل مصادرة حريته، رغم أن الأعداء لم ييأسوا قط في تدبير المكائد والمؤامرات ضده. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦ استطاع أن يدشن حركة حوار وطني كبرى، على صعيد القطر التركي، حيث بدأ يعقد صلات مع الأقليات من أهل الأديان الأخرى، مثل الكاثوليك والبروتستانت والأرتودوكس، وطائفة الأرمن وغيرهم. وامتدت علاقته إلى رؤساء الأحزاب السياسية من اليمين إلى اليسار، من خلال حوارات، كان لها أثر كبير في تخفيف الضغط على الدعوة الإسلامية بتركيا، وتيسير أمر الخدمات الإيمانية المنتشرة في كل مكان. وفي هذه الفترة أسس الأستاذ ما سماه بـ"وقف الصحفيين والكتّاب"، الذي كان وراء تنظيم مؤتمرات للحوار، وتبادل الأفكار، وعرض وجهات النظر المختلفة. فكان هذا المكان الذي رأسه الأستاذ فتح الله، مظلة واسعة لاجتماع عدد من أبرز رجال الثقافة والفكر، والكتاب الأتراك، من كل الاتجاهات الفكرية والسياسية، كما كان مناسبة لالتقاء رجال، ما كان ليلتقوا لولا هذا الوقف

الأول من نوعه في تاريخ تركيا! وصار لفتح الله بذلك فضل عظيم في الجمع بين المختلف، والتقريب بين المتباعد، وتكوين جو من التعايش السلمي بين الأطياف المتناحرة على المستوى السياسي والأيديولوجي والطائفي. فَضْلٌ لم يزل فتح الله يُذكر به على الصعيد الوطني وفي الأوساط الفكرية والسياسية خاصة. وتصدرت شخصية الواعظ الداعية واجهات الإعلام المختلفة، من خلال الحورات واللقاءات، سواء على الصعيد المحلي بتركيا، أو على الصعيد الدولي والأوروبي خاصة.

ظلم ذوي القربى!

فتح الله فارسٌ يجيد الانطلاق في أعماق الذات المؤمنة، كما يجيد الانفتاح على كل البشرية؛ فقد كانت الحوارات التي دشنها داخليا وخارجيا، مَتَارِسَ قوية، حفظت دعوةَ الإيمان بتركيا من كثير من الطعنات والضربات القاسية، بل فتحت لها كثيرا من الأبواب المغلقة، في الداخل والخارج على السواء. لكن قليلا من الناس يومها كان يفهم مسلكه، حتى من بعض المنتسبين لصف العمل الإسلامي، بل من قيادات جماعات أخرى وأحزاب إسلامية، وبعض مشايخ الطرق الصوفية! فهاجموه بوابل من النقد القاسي، على صفحات الجرائد وفي التجمعات. وعندما التقى الرجل ببابا الفاتيكان "جُون باول" في حوار تاريخي مثمر، كفّروه... واتهموه بالدعوة إلى التنصير، كما اتهموه من قبل بمصالحة العلمانية، والركون إلى الذين ظلموا. وحينما سافر إلى أمريكا اتهموه بالعمالة للمخابرات الأمريكية. أما لقاؤه العلني مع البابا فقد كان مفتاح خير

لخدماته الإيمانية، في كثير من دول أوروبا، وأمريكا، كما كان ترسا قويا في وجه الهجمات العلمانية، المحاربة للدين في الداخل التركي.

وفتح الله رجل مظلوم مرتين، ظلمه الطغاة من جهة، وظلمه إخوانه العاملون للإسلام في التنظيمات الأخرى. لكن أشد الظلم على نفسه الجريحة، كان هو ظلم إخوانه! ولم تزل مواجعه تنطق بحكمة الشاعر العربي القديم:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
علَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ!

عاصفة شُباط:
انقلاب عسكري رابع، أحرق كل الهواء!

اليوم الثامن والعشرون من شهر فبراير ١٩٩٧م لم يكن يوما عاديا في تاريخ تركيا، بل كان يوم انطلاق عاصفة سياسية رهيبة، أتت على الأخضر واليابس، عاصفة تولى كبرها الجيش في صورة انقلاب منجهي شامل، انقلاب من طبيعة أخرى، تسلط على الحكومة المنتخَبة، وأرغمها قهرًا على توقيع قوانين وإصدار قرارات، وحصل منها على تفويضات، حاصرت العمل الإسلامي من كل جهاته، وخنقت أنفاس التدين في المجتمع التركي، خنقا أدى إلى تدمير كثير من المكتسبات التي حققتها الدعوة الإسلامية طيلة عقود من الجهاد والتضحيات.

كان رئيس الجمهورية آنذاك هو سليمان ديميريل، زعيم الحزب الديموقراطي سابقًا. وأما رئيس الوزراء فقد كان هو الزعيم الإسلامي

المشهور البروفسور نجم الدين أربكان. سليمان ديميريل كان مواليا للجيش، متواطئا مع الانقلاب المنهجي، وأما نجم الدين أربكان فقد أدى ضريبة مسلكه السياسي، حيث تم إرغامه تحت التهديد على توقيع قوانين ظالمة في حق الدين والوطن، فصدرت القوانين تمنع كل مظاهر الدين في المؤسسات الرسمية والخاصة، كما تم بموجبها طرد مِئات المتّهمين بالصلاة من ضباط الجيش، أو المتهمين منهم بتحجب زوجاتهم أو حتى أمّهاتهم، أو بأي شبهة تربطهم بالدين ولو من بعيد. فشردت المئات من الأسر بصورة تعسفية. وحُرِّمَ على كل محجبة أو رجل متدين أن يدخل في أي من وظائف الدولة ومؤسساتها، بل مُنعت المحجبات من حقّهن في الدراسة من الثانوية إلى الجامعة! وكانت الفتيات يخيرن بين نزع الحجاب لمتابعة التعليم أو الانقطاع عن الدراسة!

وفقدَ كثيرٌ من الأطباء وظائفهم، وأساتذة جامعيون، ورجال قانون، وأطر أخرى من رجال الإدارة في مختلف الوزارات. ثم حُلَّ حزب الرفاه الإسلامي، بل حتى الطرق الصوفية منعت من ممارسة أنشطتها، وامتدت نار العاصفة إلى برامج التعليم، وقوانين المدارس والجامعات، فأحرقت ما كان بقي فيها من أوراق خضراء. وصارت الحياة داخل تركيا جحيما لا يطاق! وفعلا لقد غادر الوطنَ بعض العلماء والدعاة المربين، مفضلين المنافي البعيدة على البقاء في لهيب العاصفة. وفُتحت المحاكم ضد آخرين، وامتدت سلاسل الاعتقال إلى كثير من نشطاء العمل الإسلامي في مختلف الاتجاهات والجماعات.

وخسرت تركيا الشيء الكثير في العاصفة المشؤومة، عاصفة امتدت تداعياتها لعدة سنوات، وإنما تسببت فيها ممارساتٌ هوجاء لبعض

الإسلاميين، بما رفعوا من شعارات مستفزة للعلمانية الشرسة، وتصريحات نارية تهدد وتتوعد بالأبواق الفارغة عدوا خطيرًا، عدوا أخطبوطي الأذرع محليا ودوليا، لا قدرة لها البتة على مواجهته ولو لساعة واحدة! وكذا بما مارس زعماؤها من أنشطة غير محسوبة النتائج، في الفترة التي أتيحت لهم الفرصة لإدارة شؤون الدولة، لفترة قصيرة محدودة، انتهت بهذا الانقلاب المنهجي الشامل الرهيب!

أما خدمات محمد فتح الله فقد حوصرت في كل مكان، ومن كل الجهات، وكثر التفتيش على المدارس التي حث على إنشائها وعلى سائر المؤسسات. لكن الرجل استغلّ مرضه بشرايين القلب للسفر إلى أمريكا قصد العلاج فخرج من البلد في شهر مارس ١٩٩٧، وبقي هناك لمدة سبعة أشهر، فلما شعر بنوع من الانفراج في الحياة السياسية بالبلد؛ عاد إلى وطنه لمواصلة جهاده، وتفقد ما أصاب خدماته من التصدع أو الاضطراب. لكن خفافيش الظلام صاروا يطاردونه من جديد، وفتحوا ملفات قضائية ضده، وأبرقت الإشارات إلى أن الرجل صار مهددا بما يقضي على حياته نهائيا، ربما باغتيال، أو بإعدام ظالم، كما وقع من قبل لعدد من الزعماء السياسيين والروحيين.

كانت الإشارات والنُّذُرُ هذه المرة قوية خطيرة! ولكأن خطط الاغتيال صارت منه قابَ قوسين أو أدنى! ومن ثم قرر فتح الله الرحيل إلى منفاه بأمريكا مرة أخرى، فخرج من البلد تحت ذريعة السفر للعلاج، في الواحد والعشرين من شهر مارس من سنة ١٩٩٩م، لكنه هذه المرة خرج ولم يعد..!

دَوْرٌ خامسٌ في المنفى

ومِنْ على رأس جبل بعيد، في منفاه العالي، بالولايات المتحدة الأمريكية، في مخيم مُنْدَسٍ بين الأشجار، بولاية بَانْسِيلْفَانْيَا، صار محمد فتح الله ينظر ليس إلى بلاد الأناضول فحسب، ولكن إلى كل قارات العالم! وعلى مدى نظرته الممتدة إلى البعيد، كانت طيوره الذاكرة تهاجر، وكانت سراياه المجاهدة تسابق أشواقها إلى الجنة!

مخيم بَانْسِيلْفَانْيَا دَوْرٌ خامس أيضا، رغم أن البناية ليست ذات أدوار. ولكنه "دور خامس" بالمعنى الاصطلاحي الذي صار للعبارة عند طلاب الأستاذ، فأيما سكن أوى إليه فتح الله فهو دور خامس، ولو كان كوخا؛ لأن كل وظائف الدور الخامس تنقل إليه. قمن هناك بدأ النور ينطلق إلى كل أنحاء العالم، وإلى هناك صارت الوفود تشد الرحال، سواء من طلاب الأستاذ، أو من رجال الخدمة الإيمانية، أو رجال الأعمال. وفود مختلفة تتقاطر لزيارة الأستاذ المربّي، كأنها خلايا نحل مهاجرة، تَعبرْ المحيط الأطلسي ذهابا وإيابا. ولم يزل الشيخ كما كان، يلقي دروسه في علوم القرآن على صفوة من طلابه.

وارتقت علاقات الداعية فتح الله لتمتد إلى المؤسسات العلمية، والجامعات الأمريكية، فصارت له لقاءات وحوارات مع الباحثين الأكاديميين، والأساتذة الجامعيين هناك. واستطاع الرجل أن يؤسس بواسطة طلابه الأكاديميين، كرسيا علميا للدراسات الإسلامية، باسم بديع الزمان النورسي، في جامعة "جون كارول" بمدينة "سليفيلاند" الأمريكية، يشرف عليه باحثون أتراك. ومن خلاله يتم تأطير بحوث الماجستير والدكتوراه، وعقد ندوات ومؤتمرات علمية.

ولم يزل فتح الله بمنفاه الصغير -الذي لا يغادره إلا إلى المستشفى لفحص صمامة القلب- يتلقى الوفود من الأكاديميين الكبار، وبعض رجال الدين المسيحيين، الذين أعجبوا بشخصيته، ذات العمق الفكري والسمو الروحي العظيم.

في البدء لم يكن مُقام فتح الله بأمريكا بالأمر اليسير، كلا! بل كان الرجل شخصا غير مرغوب فيه، ولم تكن السلطات تقبل عذر حاجته المستمرة للعلاج؛ لتسلمه تصريحا رسميا بالإقامة، فكانت تماطله وتمانعه، وكان هو يضغط بوسائله البسيطة يومئذ، فيجددون له الإقامة لفترة وجيزة، حتى يضطر لمغادرة البلاد. لم يكن هذا القرار بعيدا عن تأثير القوى الخفية في تركيا، وآخرين ممن يحاربون دائما من وراء جُدُرٍ! فالأذرع الخفية للأخطبوط الأسود ما تزال تلاحق الرجل في كل مكان!

لكن الداعية المحنك لم يلبث أن بدأ يلتقي بمن جاء إلى الولايات المتحدة من الأتراك للتجارة أو الدراسة، وكذا محبيه من رجال الأعمال المهاجرين. ثم صار يحثّهم إلى زراعة المدارس في كل مكان من ربوع أمريكا، وإلى عقد الصلات مع المؤسسات العلمية، والأكاديمية، ورجال الثقافة والفكر، وكذا رجال الدين، وسائر شخصيات المجتمع المدني المحترمة في أمريكا؛ لكسر حاجز العزلة عن الجالية المسلمة من الأتراك، وعن الفكر الدعوي الحضاري المسالم، الذي يتبناه الأستاذ الداعية محمد فتح الله كولن. وعُقدت هنالك ندوات لدراسة فكر الرجل، وبيان منهاجه في الفهم للدين والحوار مع الآخر، شارك فيها باحثون أتراك وأكاديميون أمريكيون.

هذا، ورغم ذلك كله لم تزل الجهات الحاقدة في تركيا تمارس عاداتها المعروفة، وتجهز الملفات تلو الملفات لمحاكمته وإدانته وهو في

غربته القارسة؛ قطعا لكل أمل في عودته إلى أرض الوطن! ولكن الرجل عاد منذ زمان وهم لا يشعرون! فطيفه يعبر كل شوارع بلاد الأناضول وهم لا يبصرون! وصوته ملء كل المجالس في صالونات الأتراك! لا تنعقد جلسة إيمان إلا وهو حاضر فيها! فأنى لرجل مثل هذا أن تحاصره خفافيش الظلام؟

الفتح الأكبر:
وانكشاف السر المكنون

وأصبح فؤاد أم موسى فارغا!

فلم يكن من السهل على طلاب فتح الله في إسطنبول، ولا في كل بلاد الأناضول أن يبتلعوا خروج أستاذهم محمد فتح الله من البلاد. لقد كان الرحيل قاسيا، وكان أثره في البداية مزلزلا، لكن صرح الدعوة كان رغم ذلك أقوى من يتعرض للتصدع بله الانهيار بمثل هذا الحدث وإن كان جسيما! نعم لقد اهتزت صوامع إسطنبول وقبابها، ولكنها لم تسقط! فلقد بنى فتح الله خدمته الإيمانية على نظام المؤسسات، وجعلها قلوبا تنبض بحب الله ومعرفته، ثم ربطها بحبل السماء ورحل. صحيح أن شخصيته كانت محورًا فكريا رئيسا للدعوة، وموردا روحيا متفجرا بالأشواق، ترتوي منه ملايين القلوب العطشى، لكنه مع ذلك كان واعيا تمام الوعي بأن الأشخاص لا بقاء لهم إلا بالله، ومن ثم ربط دعوته كلها بالله، فعاش لذة الحضور في ألم الغياب.

فمن إسطنبول إلى كل بلاد الأناضول، انطلقت أشرطة "هُوجَا أَفَنْدِي"،

اللقب المفضل عند الأتراك للأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو لقب بمعنى: "السيّد الأستاذ"، أو نحوها من العبارات. انطلقت الأشرطة تجوب الأزقة والدروب، وتومض بأسطواناتها من على رفوف المكتبات، حتى لم تكد تترك بيتا ولا متجرا إلا دخلته، وأشعلت بين أضلاعه لوعة الأشواق!

وتفجرت أصداء كل المواعظ والدروس التي ألقاها فتح الله تحت قباب المساجد السلطانية وغيرها، منذ أن بدأ خدمته الإيمانية، إلى ساعة هجرته البعيدة.. فصارت تعمر كل فضاء البلاد.

ولقد عجبتُ يا سادتي كيف أن الأصداء القديمة لكلماته الفوارة، انبعثت مواعظ حية، كأنما هي الآن تُلقى من على منبر هذا المسجد أو ذاك! ولقد رأيتُ الناس يتوافدون على بوابات الجوامع الكبرى أفواجا، وللطيور اصطفاف عجيب على شرفات المآذن والقباب.

وصار لفتح الله ألف طيف وطيف، وغدت مواعظه أرغفةً تغذي ملايين الفقراء والمستضعفين من الأتراك في العالم! وسُقِطَ في أيدي الجبناء، وارتدت خفافيش الظلام إلى جحورها مذعورة من تدفق النور.

لم تكن مجردَ مواعظ، بل كانت بما بث فيها صاحبُها من أشجان، مرايا يتجلى عليها الزمان القديم، وهو يتدفق بكل عنفوانه في الحاضر اليقظان!.. كان التاريخ يزهر حدائق خضراء في قلوب الآلاف من المستمعين المزدحمين على مصادر الأصداء كطير داود اللاهجة بالأذكار.. كان بكاء الواعظ فتح الله يهيج شهيق الخيول الأصيلة، فيرتفع الصهيل مكبّرًا في كل مكان!

ويَصُفُّ الأميرُ كتائبَها الواحدةَ تلو الأخرى..

ها هي ذي واقفة بين يديه، تلقي تحية السلام والإذعان، وتنتظر إشارة الانطلاق إلى أرض الله الواسعة، فهذا زمان فتوح البلدان بفتوح القلوب.. فالتاريخ الآن يصب في المستقبل المشرق بآلاف البشائر..!

ثم كبَّر فتح الله!

- الله أكبر..!

وانطلقت الجياد الأصيلة، وماء الوضوء ينتفض من أعرافها المشوقة بريح الجنة.. كانت الكتائب تنطلق مأذونة، الواحدة تلو الأخرى..

ولقد رأيتُ يا سادتي، لقد رأيت..

رأيتُ الكتائبَ من كل فارس عالي الهمة، مشرق الجبين، رأيتها تنطلق نحو كل قارات الأرض!

كتيبة خالد بن الوليد، وكتيبة علي بن أبي طالب، وكتيبة القعقاع بن عمرو التميمي، وكتيبة عمرو بن العاص، وكتيبة أبي عبيدة بن الجراح، وكتيبة سعد بن أبي وقاص.. وكتائب أخرى من جيل النور الأول، لم يكن يحجبها عني سوى كثافة الشعاع!

ثم رأيت كتيبة عقبة بن نافع، وسمعت صهيل حصانه الكريم يقصف موج المحيط! وشاهدت خيول طارق بن زياد، ورأيت سفنه ترسو على صخور الأندلس، ثم تحرق أشرعة الهزيمة والفرار.. ورأيت النصر يتقدم في الزمان الجديد، أَمْنا وسلاما على كل العالم.

ورأيت كتيبة صلاح الدين، وشاهدت فتيان فلسطين بين يديه، ينسفون رماد العجل في اليم نسفا، وينهون غطة الكابوس الذي كان.

ورأيت كتيبة محمد الفاتح، تعلن تحقق الوعد المحمّدي، وشاهدت

النور يتدفق نحو جميع جهات الأرض، فلم يَبْق بَيْتُ وَبَرٍ ولا مَدَرٍ إلا دخله شعاع جميل!

ثم رأيت..

رأيت فتح الله وسط الجموع، كان يشير بإصبعه عاليا نحو منبع الأسرار..

كانت دموعه تشرق مسرورة بمطالع الزمان الجديد، وكان يحمل مفاتحه القديمة، ومحفظته الصغيرة.. ثم تَرَجَّلَ عن فرسه، وجعل يمشي الهوينى بين الصفوف، حتى اعتلى منبره، وأعلن للناس وحدة المطالع في كل الجهات..

وهنا أعلن فتح الله للعالم سره!

.....

حدثني راوي الأشجان قال:

في مجلس من مجالس الدور الخامس المطل على كل الدنيا، سئل فتح الله:

- يا سيدي! وكيف رأيت ما رأيت؟

قال:

- عندما تصفو الدمعة من الأكدار، وتخلص الأشواق لبارئها، تنكشف الأستار عن الأنوار..

فتنجلي معالم الطريق للسائرين!

تمّ بحمد الله.